الباب الأول

فكرة الخلود قديمًا وحديثًا

الفصل الأول

فكرة الخلود قديمًا

تدور فكرة الخلود سواء قديماً أم حديثاً حول أن جوهر الإنسان ليس هو الجسد الذى يوارى التراب - بل إنه شعلة من نور الله خالدة لا تبلى ولا تتحلل قد حلت فى جسده وكونت جسداً روحياً آخر له عالمه الخاص به (الأثير أو البرزخ) الذى سينطلق إليه بعد الموت وتركه جسده الفيزيقى - **وأن دخول هذا الجسد إلى عالم الأثير (العالم النجمي) له قانون عام مرتبط بالعمل الدنيوى وينطبق على الجميع**. وجميع الكتب الدينية سواء السماوية منها أم غيرها لو قرأت بعين العلم لوجدت فيها البراهين على ذلك ولقد عقب علماء الآثار أن الرسومات البدائية التى وجدت على التماثيل التى تمثل وجود الإنسان الأول توضح تماماً أنه كان يعتقد فى خلود واع. وحتى القبائل المتوحشة البعيدة عن المدنية تأبى أن تقول: إن شخصية الإنسان التى تميز واحداً عن الآخر تفنى بالموت - وأنه على رغم الترهات البالغة البدائية نجد دائماً نفس القصة من أن **الموت ليس نهاية الكائن الواعى**.

وكان القدمــاء يخلطون بين كلمتى النفس والروح. فكان الكلدانيون يعتقدون فى خلود النفــس وفى فكرة القيامة بالجســد. وكان المجوس يعلمون بــأن الذين يحيون حياه طيبة سوف يذهبون إلى مملكة أورم زد المضيئة أما المخطئون وشر الناس فسوف يذهبون إلى مملكة الظلام - وهذه العقيدة نادى بها زورا ستر (زرا دشت) ومازال يدين بها أهل إيران (فارس) **وتتلخــص فــى أن العنصر الروحى الذى لا يموت خلق قبل الجســد ويتحد كلاهما عند الــولادة ويفترقان عند الموت** - والنفس التى تأتى من عالم الروح تتمتع بمواهب عدة مثل المعرفــة والحكمة والتميز والفكر والعمل والإرادة الحرة والوعى الدينى.. والوحى وعند قيام **الأموات عندما يتجدد كل شئ يبدأ الخلق من جديد ويكون للنفوس أجساد جديدة حتى يمكنها أن تتذوق فى الحياة المقبلة سعادة لا حدود لها**.

كان المغول يعتقدون أن الجزء غير المادى من الإنســان هو شــعاعة خالدة وأن هذا هو القاعدة الأساسية فــى الحياة. وكان يعتقدون أن نفس الإنســان قبل أن تظهر اتخذت أشــكالاً أولاً فى النبات ثم فى الحيوانات. وبعد أن دخلت الإنســان وهى ترنو دائماً إلى

الارتفاع والتقدم وليس لها أن تعود فتخلط .

أما اليونانيون القدامى فقد كانوا يعتقدون أن نفس الميت سوف توجد فى صورة نصف واعية تكون فيها معتمدة على الوسائل الفيزيقية لراحتها.

وعلى هذا الأساس كانت رائحة دم الحيوانات أو اللحم المطبوخ من الحيوانات لدى الأبطال الأموات، ولذا كانت تقام ولائم الدفن. فعندها تشعل النار فوق مذبح الإله زيوس بيد عميد العائلة كان المفروض أن نفوس الأجداد تبلّغ بأن تأتى لتتناول نصيبها من الطعام المقدم لترضية شهواتها الشيطانية.

وقد نادى أرسطو بنفس مبدأ قدماء المصريين فكان يقول: إن الأرواح الثلاثية الغازية والشاعرة والعاقلة تعمل معاً فى الجسد أثناء الحياة الأرضية وبعد الموت لا يبقى فى حالة كاملة إلا الروح الأخيرة، التى هى الصورة الأولى للجسم.

وكان سقراط من قبله يرى أن النفس غير قابلة للزوال والانحلال وأنها جوهر لا تدركه الحواس وأنها تلتحق بعد الموت بوجود مثلها - حيث إنها كانت موجودة قبل أن يخلق جسدها ومتمتعة بالمعارف الإلهية التى نسيتها بولادتها فى الدنيا ويمكنها استرجاعها بالتذكر والتعلم.

كما قال: إن لكل إنسان روحاً تحفظه وتوحى إليه - وعندما سأله تلميذه كرتياس عن المكان الذى يريدهم أن يدفنوه فيه، أجاب سقراط فى لهجة حادة عاتبة لأنهم فشلوا (أى تلاميذه) فى فهم تعاليمه المستمرة عن حياة الروح فقال:

[**إنكم لن تدفنونى وإنما تدفنون جسدى وأنا سوف أكون فى مكان آخر**]

وفى قول آخر [**أينما تريدون لأننى سوف أكون فى مكان آخر**]

وبعد ما جاء فيثانمورس العالم اليونانى أخذ يرتب هذه المعتقدات فقال: **إنه بالإضافة إلى وجود الجسم الطبيعى للإنسان يوجد عنصر روحى، وهو عنصر له صفة الاتحاد ومحاط بنفس نصف مادية. وهذه النفس فى مظهرها تشبه الجسد وهى ضرورية لحياته، فالموت إذن هو انسحاب النفس من الجسد وفى عملية انسحابها تأخذ معها الروح أو العنصر غير المادى وتذهب إلى مكان فى الفضاء يناسب مستوى الأعمال الطيبة التى عملتها وهى فى الجسد.**

ووصف بطليموس هذا بقوله: إن النفس شقت طريقها إلى أعلى مصحوبة بالروح إلى الطبقات الإلهية فى حين أن النفس الخبيثة هوت إلى المناطق المادية المظلمة.

أما الرومان فلم يختلفوا كثيراً عن الصينيين فى عبادتهم لأجدادهم وكان يعتقد

البعض منهم بأن الحيوان إذا كان طيباً فسوف يرتقى إلى الهيئة الإنسانية وكانوا مثل غيرهم الأقدمين يعتبرون الروح ما هى إلا نفس إذا خرج خرجت هى معه. فكان الرومانى إذا ما اقترب موعد موته جاءوا له بصديق له لكى يستمع له وهو يحتضر ويقول «خذ روحى من فمى» وكان شيشرون الخطيب الرومانى الشهير يعتقد فى الخلود فهو فى نظره نظرية عامة أدركها الإنسان منذ ظهوره على الأرض. وكان يقول:

[أليست غالبية السماوات مملوءة بالبشر، هذه الآلهة نفسها نشأت هنا فى الدنيا ثم صعدت إلى السماء].

وكان الصينيون من أوائل المعتقدين فى الخلود، وكان مُشرِّعهم الأكبر كونفشيوس قبل الميلاد بحوالى ستة قرون يقول: إن للروح جسداً غير الجسد العادى لا تؤثر فيه مؤثرات الفناء وإن الروح تحيط بنا ولها القدرة على الظهور لنا متجسدة.

وهناك كتاب قديم يسمى (كتاب التبت للموتى) لا تختلف معلوماته كثيراً عن معلومات العائدين من الموت التى درست حالتهم علمياً أخيراً - فمدوَّن فيه أن روح الميت تغادر جسده وبعدئذ يجد نفسه فى فراغ لا يقوم فيه سوى ضميره، وقد يسمع ضوضاء مخدرة أو مقلقة مثل الرعد أو الريح ويجد نفسه فى وسط ضبابى. وسوف يندهش لوجوده خارج جسده الفيزيقى وهو يسمع ويرى أقاربه وأصدقاءه يبكون على جسده ويعدونه للدفن وعندما يحاول الاتصال بهم فهم لا يسمعونه أو يرونه - إذ إنه لم يدرك بعد أنه قد مات فهو مثل الذى فى دوامه سائلاً نفسه هل هو ميت أو لا.

وعندما يتحقق من موته فهو يحتار أين يذهب وماذا سيفعل شاعراً بندم كبير بالنسبة لموقفه - وسوف يظل فترة بجوار الأماكن التى تعود عليها وهو فى جسمه الفيزيقى - وسوف يشعر أن له جسماً مضيئاً يبدو أنه ليس من مادة فيزيقية لذا فهو يستطيع أن يمر خلال الصخور والحوائط وحتى الجبال دون أن يشعر بمقاومة ما. والسفر لديه لحظى. فأينما أراد الذهاب وجد نفسه هناك فى الحال.. وإذا كان فى حياته الفيزيقية أعمى أو أصم أو مشلولاً فسوف يندهش أن يجد نفسه فى جسمه «المضىء» مالكاً لكل حواسه وكل قوى جسمه الفيزيقى قد أعيدت وتقوت. ويقابل كائنات لها نفس الجسم المضيء وقد يلاقى ما يسمى «الضوء الصافى أو النقى».

وينصح أهل التبت هذا المقبل على الموت بلقاء هذا الضوء بالمحبة والعطف تجاه الآخرين.

ويبين الكتاب أن هناك مرآة من نوع ما يرى فيها الميت كل أعماله من طيب أو سيئ ويساعده على رؤية صورها الكائنات التى تقرر مصيره.

وكان الهنود من القدم يعتقدون أن الروح الإنسانية نفخة إلهية. وأن الإنسان إذا مات تكتسى الروح بجسد نورانى شفاف لا تدركه أبصار الأحياء وتنتقل إلى الملأ الأعلى:

وجاء فى كتاب « الموتى » أن الهدف عند قدماء المصريين من تحنيط جثثهم هو اعتقادهم فى عودة الروح إليها وإدارتها من جديد - وأن الموت ما هو إلا نوم أو هو عبارة عن احتجاب للحياة تنزع بعده النفس لتحيا فى نوع جديد من الحياة.. فمثلاً جاء فى كتاب [ديانة قدماء المصريين] لجاروسلاف سيدنى ما يلى:

(.. تبزغ الشمس فى الصباح وتسطع فى النهار وتختفى فى المساء فى الأفق الغربى ولكن هذا الاختفاء شيء ظاهرى ووقتى لأن الشمس لم تتوقف عن الحياة..).

ولقد كوّن المصريون عقيدة خلاصتها أن حياة الإنسان توازى إلى حد كبير ما يحدث للشمس. فهو يولد ويعيش على الأرض ويموت.. وسوف يولد مرة ثانية فى لحظة ما مثلما تولد الشمس ثانية.. وقد يتضح لنا أن هذا الرأى قد لا يختلف كثيراً عن ذكر القرآن لدورة الإنسان فى ملكوت الله جل وعلا:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة عبس - الآيات ١٩ : ٢٢].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الروم - الآية ١٩].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الروم - الآية ١١].

وجاء فى كتاب الموتى أيضاً أن قدماء المصريين سموا جهة الغرب «عنخ» أى «الحياة» لأنهم اعتقدوا أن الشمس والبشر يذهبون إلى الغرب لكى «يستريحوا فى الحياة» وسموها بعد ذلك «عنخ حوتيب» التى تعنى «الذى يحيا ويستريح» كما أن الكفن نفسه سمى «تيب عنخ» أى «سيد الحياة».

وامتد وجه الشبه بين الشمس والإنسان إلى أبعد من ذلك. فقد اعتقدوا أن الإنسان بعد موته سوف يكون جزءاً من مادة «إله الشمس» ويصبح «روحاً عالية من رع» ونجد تشابها

أيضاً مع ما جاء فى القرآن عن نهاية رحلة النفس والرجوع إلى الله عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠) ﴾ [سورة الفجر - الآيات ٢٧ : ٣٠].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [سورة السجدة - الآية ١١].

وقد اعتاد قدماء المصريين على نسبة الروح إلى مكانها فى السماء ويقصدون بذلك عالم الروح وقال بنفس الشىء معظم القدماء والمحدثين. فنجد مثلاً فى كتاب الموتى أيضاً أيام الأسرة الخامسة فى مصر القديمة ما يلى:

(.. أن رع يستقبل النفس فى السماء والجسد فى الأرض).

وفى الأسرة السادسة يقال للميت:

(.. إن جوهرك فى السماء وجسدك فى الأرض).

وفى الأسر المتأخرة كان يقال:

(.. أن نفسك فى السماء أمام رع وقرينك (الجسم النجمى) يتناول استحقاقه من الآلهة).

وجسمك الروحى كريم بين أرواح النار وجسمك المادى يرقد فى العالم السفلى (القبر) **كما كانوا يرون أن الموت عبارة عن انتقال من حال إلى حال وأن الروح تكتسى بجسد جديد خالد بعد موت الجسد المادى.**

وجاء فى كتاب الموتى (ص ٢٢٦) دعاء ميت مصرى قديم يبين الاعتقاد فى العيش بعد الموت:-

(تحياتى إليك يا من تنير القمر والذى منه تبعث ضياءك. إنك تأتى مع مجاميع خلقك وتتجول حولنا - اجعلنى ارتفع. ودعنى أدخل فى زمرة الأرواح. ودع العالم السفلى يتفتح أمامى، لقد أتيت فى هذا اليوم وأصبحت خو (khu) (أى كائناً مضيئاً) فلتدعنى الكائنات المضيئة أعش وتعمل على إحضار أعوانى أمام الأمراء الحكام الإلهيين وهم فى حالة من التعاسة وعندئذ سوف تستريح روح أمى فى سلام وأقف على قدمى ويكون لى عصا ذهبية فى يدى التى بها سوف أضرب على أطراف أعدائى وأعيش..).

واعتقد قدماء المصريين فى وجود عدة أجسام للإنسان وأن الروح تتألف من مجموعة عناصر نفسية تفترق بموت صاحبها وهى:

١ - **الخات** - khat وهى الجسم الفيزيقى القابل للتحليل والفناء والذى يمكن حفظه فقط بالتحنيط.

٢ - **كا** - KA والتى يترجمها البعض بالجسم النجمى والبعض (بالدوبل) وبعضهم بالقرين وهى شخصية جامدة لها صفات الشخص **ولو أن مكانها هو القبر عادة حيث الجسد إلا أن لها الحرية فى التجول والسكن فى أى تمثال له.** كما كانوا يعتقدون أنها تأكل وتشرب ولهذا وضعت القرابين فى المقابر.

٣ - **با** - BA أو نفس القلب وهى مرتبطة بطريقة ما مع الكا وتسكن معها فى القبر وتأخذ نصيبها من القرابين ولو أن فى بعض مواضع كتاب الموتى مدون بأنها تسكن مع رع أو أوزوريس فى السماء. ويبدو أنهم اعتقدوا أيضاً أن من صفاتها أن تأخذ جسداً مادياً أوغير مادى وفى الحالة الأولى تكون على هيئة صقر له رأس إنسان.

٤ - **آب** - AB أو القلب واعتقدوا أنه هو مصدر الحياة الحيوانية والخير والشر فى الإنسان وكان حفظه ضرورة كبيرة إذ إنه هو العنصر الهام فى عملية الحساب إذ يوزن لمعرفة العمل الطيب والخبيث.

٥ - **خايبيت** - KHAIBIT أو الظل وهو كبير العلاقة بالبا أو النفس فهو مثل الكا يتغذى على القرابين وله كيانه المنفصل عن الجسد والتجول حيث شاء.

٦ - **خو** - KHU أو النفس الروحية وهى تذكر مع البا أو نفس القلب. وكانت تعتبر على أنها مخلوق أثيرى أو (النفس) التى لا تموت تحت أى ظروف وهى تسكن فى (الساهو) SAHU أى الجسم الروحى.

٧ - **سخيم** - SEKHEM أو القوة الموحدة للشخصية ومظهر الطاقة الحيوية فى الإنسان. وهى تسكن السماء مع الروح أو (الكوس).

٨ - **رن** - REN أو الاسم وكانوا يعتقدون أن الاسم يجب أن يحفظ فإذا نسى فقد صاحبه وكان يكتب داخل القبر دائماً.

٩ - **ساهو** - SAHU أو الجسم الروحى وهو مسكن النفس. وينطلق من الجسم المادى بواسطة الصلوات عليه والطقوس التى أديت عند القبر أو خلافه بواسطة كهنة رسميين والجسم الروحى خالد وفيه تظل الصفات العقلية والروحية للجسم الطبيعى.

هذا ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن هذه الأسماء لم تنشأ كلها فى عصر واحد إذ من قراءة كتاب الموتى نفسه لا يعثر القارئ على مصدر لهذا التقسيم بل يجد تضارباً أحياناً مما يشير إلى أن قدماء المصريين كانوا يخلطون أحياناً فى فهمهم لبعض وظائف هذه الأسماء.

وكان قدماء اليهود يعتقدون فى نوع ما من السماء التى يسكنها الله الذى يصب غضبه على الناس ما عداهم أى اليهود شعبه المختار الأمين.

ولم يرد في التوراه أى شيء عن الحياة الأخرى إلا فى ثلاثة مواضع من المزامير ففى مزمور ١٦ – ١٠ نجد (لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية).

وفى مزمور ٤٩ – ١٥ (إنما الله يفدى نفسى من يد الهاوية لأنه سوف يأخذنى).

وفى مزمور ٧٣ – ٢٤ (برأيك تهدينى وبعد إلى مجد تأخذنى).

ونجد ذكرها على لسان الأنبياء مرتين فقط:

ففى هوشع ١٣ – ١٤: (من يد الهاوية أفديهم من الموت أخلصهم).

وفى دانيال ١٢ – ١٢: (وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون. هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى).

وكانوا يعتقدون أن روح الميت تعود إلى الله أما نفسه فتذهب إلى القبر أو عالم الظلام (تحيا أمواتك تقوم الجثث. استيقظوا ترنموا يا سكان التراب. لأن طلك طل أعشاب والأرض تسقط الأخيلة) أشعيا ١٩/٢٦.

وكان أيوب يقول متحسراً: (والإنسان يضطجع ولا يقوم).

(إن مات رجل أفيحيا؟) أيوب ١٤ – ١٢، ١٤.

كذلك جاء فى الجامعة:

(لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون أما الموتى فلا يعلمون شيئاً.. ومحبتهم وبغضهم وحسدهم هلكت من زمان) ٩ – ٥.

(لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها) ٩ – ١٠.

ونرى شيئاً من الأمل فى حياة آخرة إذ يقول:

(أما أنا فقد علمت أن ولى حى والآخرة على الأرض يقوم. وبعد أن يفنى جلدى هذا وبدون جسدى أرى الله) أيوب ١٩ – ٢٤.

والخلاصة أنه لا يوجد نص صريح عن الحياة الأخرى التى تبدو قليلة الأهمية فى كتاب التوراة المطول بالمقارنة بالأديان الأخرى.

أما الإنجيل فيتبين منه بوضوح وجود حياة أخرى أو كما قال بولس فى رسالته إلى أهل كورنثوس (١٥– ٣٥ – ٥٢):

(لكن يقول قائل كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون. يا غبى الذى تزرعه لا يحيا إن لم يمت والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حفظة أو أحد البواقي ولكن الله يعطيها جسماً كما أراد. ولكل واحد من البذور جسمه. ليس كل جسد جسداً واحداً بل للناس جسد واحد وللبهائم جسد آخر وللسمك آخر وللطير آخر وأجسام سماوية وأجسام أرضية. لكن مجد السماوات شيئ. مجد الشمس شيء ومجد القمر آخر ومجد النجوم آخر. لأن نجماً يمتاز عن نجم فى المجد.

هكذا أيضاً قيامة الأموات. يزرع فى فساد ويقام فى عدم فساد. يزرع فى هوان ويقام فى مجد. يزرع فى ضعف ويقام فى قوة. يزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحانياً. يوجد جسم حيوانى ويوجد جسم روحانى. هكذا مكتوب أيضاً. صار آدم الإنسان الأول نفساً حية وآدم الأخير روحاً محيياً. لكن ليس الروحانى أولاً بل الحيوانى. وبعد ذلك الروحانى. الإنسان الأول من الأرض ترابى، الإنسان الثانى الرب من السماء. كما هو الترابى هكذا الترابيون أيضاً. وكما هو السماوى هكذا السماويون أيضاً **وكما لبسنا صورة الترابى سنلبس أيضاً صورة السماوى.** فأقول هذا أيها الأخوة إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد. هو ذا سر أقوله لكم لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الأخير. فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد. ونحن نتغير لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس فساد. وهذا المائت يلبس عدم موت فحينئذ تصير الكلمة المكتوبة ابتلع الموت إلى غلبة. أين شوكتك يا موت).

أما فيما يتعلق بالإسلام فلقد أعطت الثقافة الإسلامية العالم وخاصة غربه بدايات المنهج التجريبى وأسس الاحتكام إلى العقل وفكرة التقدم.

وكان للحضارة العربية الإسلامية الدور الرئيسى فى بناء الحضارة الإنسانية العالمية، والتواصل الحضارى بحضارات العالم القديم – لقد عنى الإسلام بما يتميز به من إعجاز عقلى وشمول معجز لم يترك صغيرة أو كبيرة تتعلق بكافة جوانب الحياة والإنسان إلا وقد عنى بها عناية متفردة وأؤكد على ذلك بعنايته بثنائية المادة والروح وإقامة التوازن بينهما فى حياة الإنسان **فهو لا يتجاهل احتياجات الإنسان المادية ولذلك لا يدعو إلى الرهبنة – كما لا يعمل على تحقيق مطالبه المادية وحاجاته الأساسية فحسب بل يغرس فيه أساساً القيم الروحية وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة:**

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة القصص – الآية ٧٧].

واستكمالاً لهذا المبدأ تتكامل الحياة الدنيا مع الآخرة مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ٢٠١].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء – الآية ٧٢].

وبهذه الصورة يجتمع للفعل الواحد جزءان أحدهما دنيوى يتولاه ولى الأمر وثانيهما أخروى. فإن استطاع الإفلات من الجزء الدنيوى استحال الإفلات من الجزء الأخروى – وتحقيقاً للتوازن بين الجانبين الروحى والمادى يجمع الإسلام بين العقل والإيمان فى وحدة متناسقة، فالعلم ليس مجرد خادمٍ مطيع للإيمان على خلاف ما حدث فى أوروبا فى العصور الوسطى، والإيمان ليس عدواً للعلم – على خلاف ما ينادى به كل من الفكر الشيوعى والعلمانى، فآيات القرآن الكريم قاطعة فى حث الإنسان على التزود الدائم بالعلم وإعمال عقله بفكره فى كشف أسرار الكون بالدراسة – والأحاديث الشريفة تجعل من طلب العلم فريضة، واستعمال الأساليب العلمية خير وسيلة لدعم الإيمان.

وغير خاف على أى عالم أو باحث أو مستشرق الآن أن من إعجازات الإسلام التى تثبت للإنسانية يوماً بعد يوم أن أخطر الحقائق التى كشف عنها العلم التجريبى حديثًا ما يسمى الآن بالباراسيكولوجى أو «العالم الروحى الحديث» والإثبات الموضوعى لوجود جانب باراسيكولوجى للإنسان وخلود هذا الجانب وبقائه بعد فناء الجسد مع كل ما يترتب على ذلك من واجبات يفرضها علينا فهمنا لحقائق الحياة وما بعد الحياة وما يتعلق بذلك من ظواهر تسمى بالظواهر الروحية، **قد أكدها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً – وإذا كان القرآن الكريم وهو الملهم لكافة الأنشطة والمواقف السلوكية للفرد المسلم وإذا كان القرآن الكريم من أوله إلى آخره قد تناول الحياة الآخرة ووصفها ونكتفى بما يرد ذكره لملاءمة ما تقدم ذكره:**

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الزمر – الآية ٤٢].

فإذا ما قابلنا هذه الآية بمعنى النوم والموت فى ضوء نتائج العلم الروحى الحديث باعتبارهما طرحاً روحياً لا يختلفان إلا فى انقطاع ما سماه هذا العلم بالحبل الأثيرى

(أى الحبل الذى يربط بين الجسد والنفس عند خروجها منه إذا ما ظل الإنسان على قيد الحياة وينقطع إذا ما مات) وإذا ما استحضرنا بعد ذلك معنى الإمساك والإرسال لاتضحت لنا جليا تلك اللمعة الفذة فى كلمات قليلة تطوى أعظم وأخطر حقائق ما توصل إليه هذا العلم وهذه السمة هى بالحقيقة طابع كل الجمل القرآنية.. فإذا جئت أيضاً معى إلى الآيات التالية:

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) ﴾ [سورة الواقعة – الآيات ٨٤: ٨٥].

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [سورة المؤمنون – الآيات ٩٩: ١٠٠].

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [سورة الأنعام – الآية ٦١].

وقابلت ما تستخلصه من هذه الآيات من أن رحمة الله بعباده لا تتركهم عند الموت لأنفسهم وأن المولى عز وجل يرسل رسله للمساعدة ومد يد العون لتوفى هذه الأنفس عند الموت – ونقلها إلى حياة أخرى هى حياة البرزخ وأن هذه الحياة ستكون درجاتها والنعيم فيها أو الشقاء طبقاً لأعمالهم فى الحياة الدنيا ثم نظرت إلى ما انتهى إليه العلم الروحى الحديث من وصف للحظات الانتقال وحضور الملائكة والأرواح للمساعدة.. الخ لما وجدت تناقضاً.

أما فى الحديث الشريف فتعال بنا نقف عند حديث من أخطر الأحاديث وأكثرها دلالة على حقيقة الوجود الإنسانى على الأرض فى قوله ﷺ: **(الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) وهذا ما وقفت عنده كثيراً وأجمعت عليه ما تسمى «البحوث الروحية الحديثة»** وأحدث ما توصل إليه علم الباراسيكولوجى أو ما يسمى «علم الروح الحديث» من حقائق إذ كون الإنسان فى حقيقة وجوده على الأرض أشبه بالنائم، **أدى ارتباطه بالمادة إلى حجب الكثير من الحقائق عن إدراكه وحين يخلع عنه رداء المادة بالموت كل حواسه الروحية وتتفتح فيرى الأمور على حقيقتها.**

وسبحان من أنزل هذا الكلام:

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [سورة ق – الآية ٢٢].

وفـى الصحيحـين عنه ﷺ من وجوه متعددة. أنه أمـر بقتلى بدر من الكفار فألقوا فى قليـب، ثم جاء حتى وقف عليهم، وناداهـم بأسمائهم يافلان أبن فلان ويافلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً. فقال له عمر: يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا، فقال : **والذى بعثنى بالحق، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جواب.**

وثبـت عنه ﷺ «أن الميت يسـمع قرع نعال المشـيعين له إذا انصرفـوا عنه» (رواه البخارى فى باب الجنائز - ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائى عن أنس).

وفى النسـائى وغيره من حديث معقل بن يسـار المزنى عن النبى ﷺ إنه قال: (اقرءوا يس عند موتاكم) وقوله ﷺ : (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله) رواه مسـلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه فى الجنائز وأحمد فى سنده ٣/٣.

ورواه أبو داود فى سننه أن النبى ﷺ حضر جنازة رجل فلما دفن قال: «سلوا لأخيكم التثبيت، فإنه الآن يسأل».

قـال أبو بكر عبد الله بـن محمد عبيد بن أبى الدنيا فى كتـاب: باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:

- (حدثنا) محمد بن عوف، حدثنا يحيى بن يمان، عن عبد الله بن سمعان، عن زيد بن أسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: قال رسول ﷺ :

(ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا أستأنس به ورد عليه حتى يقوم).

- **(حدثنـا) خالد بن خداش، حدثنا جعفر بن سـليمان، عن أبى التياح قال:** «كان مطـرف يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أولج (سـارليلا) قال **وسمعت أبا التياح يقول**: بلغنا أنه كان ينور له فى سوطه فأقبل ليلة، حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره، فقالوا: هذا مطرف يأتى يوم الجمعة، قلت وتعلمون عندكم يوم الجمعة؟ **قالوا نعم**، ونعلم ما يقول فيه الطير، قلت وما يقولون؟ قالوا يقولون سلام سلام.

- **(حدثنى) محمد، حدثنى يحيى بن بسطام حدثنى عثمان بن سورة الطفاوى قال:** وكانـت أمـة من العابدات، **وكان يقـال لها راهبة قال**: لما احتضرت رفعت رأسـها إلى السماء فقالت: ياذخرى وذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى، **لا تخذلنى**

عند الموت ولا توحشني في قبري، فرأيتها ذات يوم في منامي فقلت لها: يا أماه كيف أنت؟ قالت: أي بني إن للموت لكربة شديدة، وإني بحمد الله لفي برزخ محمود نفترش فيه الريحان ونتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها آلك حاجة؟ قالت: نعم - قلت وما هي؟ قالت لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك. يقال لي يا راهبة هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر من حولي من الأموات.

- (حدثني) محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن بسطام الأصغر، حدثني مسمع حدثني رجل من آل عاصم الجحدري قال: رأيت عاصم الجحدري في منامي بعد موته بسنتين فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى. قلت: فأين أنت؟ قال: أنا في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم. قال: قلت أجسادكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال نعم، نعلم بها عشية الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع الشمس قال: قلت فكيف ذلك دون الأيام كلها: قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته.

وسأروى لك عزيزى القارئ أيضاً أكثر من قصة على سبيل المثال بما يؤكد لك حرص الإسلام على عظمة المعاني الروحية وحقائقها فهو الدين الوحيد الذى أجاز وصية الميت بعد موته وإليك القصة:

(في معركة اليمامة خرج قيس بن شماس رضي الله عنه في جيش خالد بن الوليد لقتال مسيلمة، فقاتل قيس قتالاً عظيماً حتى استشهد، وكان عليه يومها درع نفيسة فمر به رجل من المسلمين فأخذها عنه - وبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه قيس في منامه فقال له: «أوصيك بوصية، وإياك أن تقول هذا حلم فَتُضَيِّعه: إني لما استشهدت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستن بطوله فأت خالداً ومره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ فقل له إن عليَّ من الدَّين كذا وكذا وأخبره» فبعث خالد بن الوليد إلى الدرع فأتى بها وحدث الخليفة أبا بكر رضي الله عنه برؤياه فأجاز وصيته، وكانت أول وصية في الإسلام - بل في جميع الأديان - أجيزت لرجل بعد موته.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى النفس في القرآن الكريم بالدخول، والخروج، والقبض، والتوفي، والرجوع، وصعودها إلى السماء، وفتحُ أبوابها لها، وغلقها عنها، فقال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ [سورة الأنعام – الآية ٩٣].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ [سورة الفجر].

وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد.

وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [سورة الشمس]

فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن في قوله تعالى:

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) ﴾ [سورة الإنفطار].

فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه، بل سوى بدنه كالقلب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها **كالقلب لما هو موضوع له.**

ومن هنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها، فإنها تتأثر وتنتقل من البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخُبثها، وتكتسب النفس الطيب والخبثَ من طيب البدن وخبثه، **فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثيراً من أحدهما الآخر النفس والبدن ولهذا يقال لها عند المفارقة: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب،** واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث.

وقال الله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الزمر – الآية ٤٢].

فوصفها بالتوفي، والإمساك، والإرسال، كما وصفها بالدخول، والخروج، والرجوع، والتسوية. ومن أحاديث الحمد الذكية الثابتة عن الرسول ﷺ **قوله عند الاستيقاظ:**

(الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا) أخرجه أحمد فى مسنده.

(الحمد لله الذى عافانى فى جسدى ورد على روحى، وأذن لى بذكره) الترمذى ٣/١١٤.

كما أخبر ﷺ: (أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه عن أم سلمة.

وأخبر (أن الملك يقبضها، فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض) رواه أحمد فى مسنده ٤/ ٢٨٧.

وجدير بالذكر هنا أن الأعراض لا ريح لها، ولا تمسك، ولا تؤخذ من يد إلى يد.

وأخبر النبى ﷺ أيضاً: (أنها تصعد إلى السماء. ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض، وأنها تفتح لها أبواب السماء، فيصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل فتوقف بين يده، ويأمر بكتابة اسمه فى ديوان أهل عليين، أو ديوان أهل سجين. ثم ترد إلى الأرض، وأن روح الكافر تطرح طرحاً، وأنها تدخل مع البدن فى القبر للسؤال) رواه أحمد فى مسنده.

كما أخبر النبى ﷺ: (بأن نسمة المؤمن – نفسه المطمئنة – طائر يعلق – بضم اللام أى تأكل – فى شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها) رواه أحمد فى مسندة والنسائى فى باب الجنائز.

وقد ذكر محمد بن حزم فى كتابه الملل والنحل :

(وأما من ظن أن الميت يحيا فى قبره قبل يوم القيامة فخطأ. إنَّ الآيات التى ذكرناها تمنع من ذلك) يعنى قوله تعالى:

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [سورة غافر – الآية ١١].

وقوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[سورة البقرة – الآية ٢٨].

قال: ولو كان الميت يحيا فى قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاث، وأحيانا ثلاث وهذا باطل، وخلاف القرآن. إلا من أحياه الله تعالى آية لنبى من الأنبياء:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٤٣].

وكذلك قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [سورة الزمر - الآية ٤٢].

فصح نص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى الجسد إلا إلى الأجل المسمى.

وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه رأى الأرواح ليلة الإسراء والمعراج.. كما أخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى. إنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا، واعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك، وأما الجسد فلا حس له، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾ [سورة فاطر - الآية ٢٢].

فنفى السمع عمن فى القبور، وهى الأجساد «الفيزيقية» بلا شك ولا يشك مسلم أن الذى نفى الله عز وجل عنه السمع هو الذى أثبت له رسول الله ﷺ السمع .

ويقول الإمام شمس الدين أبى عبد الله بن القيم الجوزية فى كتابه القيم «الروح»:

(**وأما قول من قال: الأرواح على أفنية قبورها، فإن أراد أن هذا أمر لازم لها لا تفارق أفنية القبور أبداً فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة**، وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتاً، أو لها إشراف على قبورها وهى فى مقرها فهذا حق ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور).

ويقول: (ولقد بينًا أن عرض مقعد الميت عليه من الجنة والنار **لا يدل على أن الروح فى القبر ولا على فنائه دائماً من جميع الوجوه، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه**، وذلك القدر منها بعرض عليه مقعد، فإن للروح شأناً آخر فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى. وإنما يغلط أكثر الناس فى هذا الموضوع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون فى غيره. وهذا

غلط محض. بل الروح تكون فوق السموات فى أعلى عليين وترم إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه وسمع كلامه. وقد رأى رسول الله ﷺ موسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره ورآه فى السماء السادسة أو السابعة. فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرفها فى السماء.. وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله بين العرش ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان.. وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السموات السبع وتقف بين يدى الله فتسجد له ويقضى فيها قضائه ويريها الملك ما أعد الله لها فى الجنة ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه).

ويقول: (وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست فى الجنة وأنها على أفنية القبور، فهذا سيد ولد آدم الذى روحه فى أعلى عليين مع الرفيق الأعلى ﷺ يسلم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه، **وقد وافق أبو عمر رحمه الله على أن أرواح الشهداء فى الجنة ويسلم عليهم عند قبورهم كما يسلم على غيرهم كما علمنا ﷺ أن نسلم عليهم وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أحد وقد ثبت أن أرواحهم فى الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدم، ولا يضيق عقلك عن كون الروح فى الملأ الأعلى تسرح فى الجنة حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبرها وتدنو حتى ترد عليه السلام، فللروح شأن آخر غير شأن البدن**، وهذا جبريل صلوات الله وسلامه عليه رآه النبى ﷺ وله ستمائة جناح منها جناحان ترسد بهما ما بين المشرق والمغرب (حديث صحيح رواه أحمد والبخارى ومسلم) وكان من النبى ﷺ حتى يضع ركبته بين ركبتيه ويديه على فخديه (رواه مسلم والترمذى وأبو داود والنسائى عن عمر بن الخطاب) وما أظنك يتسع بظنك أنه كان حينئذ فى الملأ الأعلى فوق السموات حيث هو مستقره وقد دنا من النبى ﷺ هذا الدنو، **فإن التصديق بهذا له قلوب خلقت له وأهلت لمعرفته**، ومن لم يتسع لهذا فهو أضيق أن يتسع للإيمان بالنزول الإلهى إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماوات على عرشه لا يكون فوقه شيء البتة بل هو العلى على كل شيء وعلوه من لوازم ذاته. وكذلك دنوه عشية يوم عرفه من أهل الموقف، وكذلك مجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره وكذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسواها ومدها وبسطها وهبأها لما يراد منها. وكذلك مجيئه يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحد كما قال النبى ﷺ : فأصبح ربك يطوف فى الأرض وقد خلت عليه البلاد. هذا وهو فوق سماواته على عرشه).

ويقول: (ومما ينبغى أن يعلم أن ما ذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر. **فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها، وأنت ترى أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح في كيفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها، فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا وهى محبوسة في بدنها فكيف إذا** تجردت وفارقته واجتمعت فيها قواها وكانت فى أصل شأنها روحاً علية زكية كبيرة ذات همة عالية؟! فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر.

وقد تواترت الرؤيا فى أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها مالا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد واثنين والعدد القليل ونحو ذلك.

وكم رُئى النبى ﷺ ومعه أبو بكر وعمر فى النوم وقد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعدتهم وضعف المؤمنين وقلتهم).

ويقول: (**وقال عكرمة ومجاهد**: إذا نام الإنسان فإن له سبباً يجرى فيه الروح وأصله فى الجسد فتبلغ حيث شاء الله ما دام ذاهباً، فالإنسان نائم فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان وكان بمنزلة شعاع الشمس الذى هو ساقط بالأرض فأصله متصل بالشمس. **وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال**:

إن الروح يمتد من منخر الإنسان ومركبه، وأصله فى بدنه، فلو خرج الروح بالكلية لمات كما أن السراج لو فرق بينه وبين الفتيلة، ألا ترى أن مركب النار فى الفتيلة وضوءها وشعاعها يملأ البيت؟ فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان فى منامه حتى تأتى السماء، وتجول فى البلدان وتلتقى مع أرواح الموتى، فإذا أراه الملك الموكل بأرواح العباد ما أحب أن يريه، وكان المرئى (أى الشخص النائم) فى اليقظة عاقلاً ذكيا صدوقا لا يلتفت فى يقظته إلى شىء فى الباطل رجع إليه روحه فأدى إلى قلبه الصدق مما أراه الله عز وجل على حسب خلقه، وإن كان خفيفاً ترقا يحب الباطل والنظر إليه فإذا نام وأراه الله أمراً من خير أو شر رجعت روحه إليه، فحيث ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو الباطل وقفت روحه عليه كما تقف فى يقظته، فكذلك لا يؤدى إلى قلبه فلا يعقل ما رأى لأنه خلط الحق بالباطل. فلا يمكن لمعبد أن يعبد له وقد خلط الحق بالباطل.

وهذا من أحسن الكلام وهو دليل على معرفة قائله وبصيرته بالأرواح وأحكامها. وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شيء له ثم يمر بباطل ولهو من غناء، أو شبهه، أو زور، أو غيره، فيصغى إليه ويفتح له قلبه حتى يتأدى إليه، فيتخبط عليه ذلك الذى سمعه من العلم والحكمة ويلتبس عليه الحق بالباطل. فهكذا شأن الأرواح عند النوم، وأما بعد المفارقة فإنها تعذب بتلك الاعتقادات الباطلة التى كانت حظها حال اتصالها بالبدن، ويضاف إلى ذلك عذابها بتلك الإرادات والشهوات التى حيل بينها وبينها ويضاف إلى ذلك عذاب آخر ينشئه الله لها ولبدنها من الأعمال التى اشتركت معه فيها وهذه هى المعيشة الضنك فى البرزخ والزاد الذى تزود به إليه.

(.. والروح الزكية العلوية المحقة التى لا تحب الباطل ولا تألفه بضد ذلك كله تنعم بتلك الاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التى تلقتها من مشكاة النبوة وتلك الإرادات والهمم الزكية وينشئ الله سبحانه وتعالى لها من أعمالها نعيماً ينعمها به فى البرزخ فتصير لها روضة من رياض الجنة..).

وقال ابن القيم: (وقالت طائفة وهم أهل الأثر إن الروح غير النفس.. والنفس غير الروح وقوام النفس بالروح. والنفس صورة العبد والشهرة والبلاء معجون فيها. ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه. فالنفس لا تريد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها والروح تدعو للآخرة وتؤثرها. وجعلت الهوى تبعاً للنفس والشيطان تبع النفس والهوى والملك مع العقل والروح.. وقالت جماعة إن الأرواح على صور الخلق لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان).

وقول ابن القيم عن الروح: (إنها جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس. وهو جسم نورانى علوى خفيف متحرك ينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء فى الورد وسريان الدهن فى الزيتون والنار فى الفحم.. وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت من قبل تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح).

هذا وقد تكلم المسلمون الأوائل أيضاً عن الروح فمثلاً:

ذهب ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الزمر - الآية ٤٢].

إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق في ابن آدم شيئين هما النفس والروح وبينهما مثل شعاع الشمس. فالنفس هي العقل والتميز والروح هي التي تكون بها الحياة. وعند النوم تخرج النفس وحدها وتبقى الروح، ولا يخرجان معاً إلا عند الموت «عبد الظاهر خليفة: الحياة البرزخية ١٩٨٣».

ورأى ابن عباس قريب الشبه برأى علماء الغرب الحديثين. إلا أنهم لا يرون ثمة فاصلاً بين الروح والنفس. فالروح spirit عند علماء الغرب ثلاثية التكوين: لأنها عبارة عن جسم أثيرى Per spirit وهذا الجسم يحمل شعلة مقدسة هي التي تهب الحياة، كما أنه يحمل العقل ويطلقون عليه النفس Soul وهو يمثل قوى الحس والإدراك في الكائن الحي.

ويقول العالم الفيلسوف ابن سيناء:

(اعلم أن الجوهر الذى هو الإنسان في الحقيقة لا يفنى بعد الموت ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن بل هو باق لبقاء خالقه تعالى، وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن لأنه محرك البدن ومدبره ومتصرف فيه. والبدن منفصل عنه تابع له. فإذن لم يضر مفارقته عن الأبدان وجوده.. ثم إن الإنسان في نومه يدرى الأشياء ويسمعها. بل يدرك الغيب في المنامات الصادقة بحيث لا يتيسر له في اليقظة. فهذا برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن بل هو يضعف بمقارنة البدن ويقوى بتعطله. فإذا مات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن حبس البدن).

ويقول الشيخ طنطاوى جوهرى:

(إن دين الإسلام يبين أن الروح كانت قبل خلق الأجسام ويتجلى ذلك في الآية:
﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف - الآية ١٧٢].

ويرى عدم الأخذ بقول ابن سينا وأضرابه من الفلاسفة الذين قالوا: إن الآية مؤولة وأن الأرواح خلقت مع الأجسام. ويرى أنه لعل الأرواح كانت في غلاف نوراني لا يرى من مادة الأثير التي تدق على الأذهان فضلاً عن العيان. وأنه لعل للأرواح هناك معارف وعلوماً لا ندريها وأن هذا ما لا طاقه لنا بعلمه).

وجاء فى كتاب (بشرى الكتيب بلقاء الحبيب) تأليف الإمام جلال الدين السيوطى :

(الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف إنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقة وحيلولة بينهما وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار).

وقال ابن مسكويه عن الموت: (إذا كان الخوف من جهل الموت. فالموت ليس بشىء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها..).

وقال عن النفس: (النفس جوهر غير جسمانى وليست عرضاً. وأنها غير قابلة للفساد).

وقال عبد الكريم الجيلانى فى تعريف للموت:

(الموت عبارة عن خمود النار الغريزية التى يكون بها سبب الحياة فى دار الدنيا. وتلك الحياة عبارة عن نظر الأرواح إلى نفسها فى الهياكل الصورية).

ثم يقول: (إن سبب هذه الحياة هو الحرارة الغريزية).

ويأخذ برأى قدماء الإغريق فى أن: (كل واحد من النار والماء والهواء والتراب مركب من العناصر الأربعة التى هى الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة) فالموت هو ذهاب هذه الحرارة الغريزية من الهيكل الحيوانى بما يضادها من البرودة الغريزية هذا الأمر نصيب الجسم. وأما نصيب الروح فإن حياة هيكلها هو مدة نظرها إلى الهيكل بعين الاتحاد. وموته هو ارتفاع ذلك النظر من الهيكل إلى نفسها فتبقى بكليتها فى عالمها لكن على هيئة الهيكل الذى كان لها تتجسد على شكله فى عالم الأرواح فيحكم لها بالوجود معها لذلك التجسد).

وقال محيى الدين بن عربى عن مجىء الموت وخلاص الجوهر:

(فأخلى البلد وفرق بين الروح والجسد ورد كل شىء إلى أصله وجمع بينه وبين أقاربه وأهله فألحق الجسم مع أترابه وعرج بالروح المشبه فى الإضاءة بيوح فألحقه بالروح المضاف إليه).

ويقول الإمام الغزالى عن الروح:

(إنها اللطيفة الربانية التى تحل فى الجسم وتقيم فيه).

(الروح ليس بجسم ولا عرض فى الجسم بل هو مقدس عن هذه العوارض).

(إنها لما تعشقت بالجسم وتعشق بها الجسم كانت ناظرة إليه ما دام معتدلاً فى صحته. فإذا سقم وحصل فيها الألم بسببه أخذت فى رفع نظرها عنه إلى عالمها الروحى).

ويرى الغزالى خطأ فى قول الفلاسفة (أن الأجساد لا تحشر وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية. ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية فإنها كائنة أيضاً ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به).

وهو لا يركن إلى رأى ثابت فهو يعد له كلما أنتج كتاباً جديداً. ففى كتابه «تهافت الفلاسفة» يعود فيقول: (إن البعث معناه إيجاد لمثل ما كان لا لعين ما كان، وأما جمع جميع الأجزاء ليس ضرورياً حتى يحتج باستحالته).

ومن هذا القول يتبين أنه اقترب كثيراً من «علم الروح الحديث» فقوله: «مثل ما كان» يعنى فى الروحية الحديثة الجسم النجمى المشابه للجسم الفيزيقى.

ويقول الإمام الغزالى أيضاً:

(جعل الموت مخلصاً للأتقياء وموعداً فى حقهم للقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبسا ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء).

وعن سبب الموت يقول الغزالى (إنه خروج الجسد عن طاعة الروح لأن الأعضاء آلات للروح والموت عبارة عن استعصاء هذه الأعضاء).

وبخلاف الإمام الغزالى يرى الإمام ابن رشد أن الحياة والحشر سوف تكون روحانية لأن الجسم قد ذهب إلى أشياء أخرى: (مثال ذلك أن إنساناً مات واستحال جسمه إلى التراب واستحال ذلك التراب إلى نبات فاغتذى إنسان آخر من ذلك النبات فكان منه منى حين تولد منه إنسان آخر).

ويقول الإمام الأصفهانى عن الموت: إنه انتقال من دار إلى دار فهو وإن كان فى الظاهر فناء واضمحلال فهو فى الحقيقة ولادة ثانية: (ولولا أن هذا الموت لم يكمل الإنسان. فالموت إذن ضرورة فى كمال الإنسانية. **ولكون الموت سبباً للانتقال من حال إلى حال أشرف وأرفع سماه الله توفياً وإمساكاً عنده).**

ومما سبق يتضح لنا من هذه الآراء المتعددة أنها تتلخص فى الرأى الذى ينادى به علماء الروح المحدثون. **فتعريف الروح كما جاء فى «دائرة معارف العلم الروحى»:**

- الجسم الإلهى.
- الجوهر الحيوى.
- العنصر الفعال الفطرى فى الحياة.

- نسكن الجسم النجمى الذى هو النفس وهذه الأوصاف كلها لم تعد - كما نرى - تعاريف المسلمين الأوائل للروح بل أيضاً العلم الروحي الحديث مما يمكننا القول بأنه بعد طول الجهد قد فسر الماء بالماء.

وأيضاً ما يجب قوله والتأكيد عليه أن الروح قبس من نور الله ومازال سرها غامضاً وإن كان من المكن التحدث عن مظاهرها وآثارها فينا.

كما أنه لا يفوتنا هنا أن نؤكد على أن القضية الإيمانية فى الإسلام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالغيب بل إن الإيمان لا يتحقق إلا إذا كان غيبياً من خصائص الروح يقره القلب.

وحيث إن ذلك الاهتمام بالجانب الروحى فى الإسلام من دلائل عظمة الرسالة المحمدية للإنسانية جمعاء لذا فقد يلزم أن نعرض لذلك ولو بشيء من الإيجاز فيما يلى:

الإيمان يكون غيبياً:

لا يتحقق الإيمان فى الإسلام إلا إذا كان غيبياً لقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة البقرة]

وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة يس].

ويعتبر الإيمان غيبياً إذا لم يكن مستنداً إلى حاسة من الحواس الخمسة. أما اشتراط الإدراك الحسى للتصديق فإنه يعد انتقاصاً من التكليف لا يتحقق به الإيمان كشأن قوم موسى الذين قال فيهم الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة البقرة].

ومن قبل الإدراك الحسى الذى لا يعتد بعده بالإيمان ظهور علامات الساعة الكبرى.

فقد روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

(لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها) رواه البخارى ومسلم.

ثم قرأ قوله الله تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ

رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ [سورة الأنعام].

وليس يقصد بالإيمان الغيبى الإيمان بكل الأمور الغيبية بل لكل ما يتعين الإيمان به وحسبما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله الكريم كالإيمان بوحدانية الله وأحديته وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث بعد الموت والجنة والنار والقدر خيره وشره.. لأن لفظ الإيمان على إطلاقه لا ينصرف إلا للأمور التى ذكرناها والتى بها يحصل الأمن النفسى والاستقرار غير أن القلب أحياناً لا يستيقن ويطمئن إلا إذا كان الإيمان قائماً على دليل عقلى. وعلى إية حال فإن الأدلة العقلية التى ترد عن غير طريق الحواس لا تتعارض مع كون الإيمان غيبياً.

الإيمان والتصديق بالقلب :

لا يتحقق الإيمان بالشيء عند جمهور الفقهاء إلا إذا كان القلب عارفاً مضمونه ومقراً به ومستيقناً منه. أما الإقرار باللسان أو إتيان صالح الأعمال فلا يتوافر به الإيمان إذا كان القلب منكراً لمضمون الإقرار أو جاحداً لقوله تعالى :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [سورة البقرة].

وليس كل ما يصدقه القلب يتوفر به الإيمان، بل لابد أن ينصب التصديق على أمور يتحقق بها الأمن ويطمئن إليها القلب، لأن لفظ الإيمان أساساً مشتق من الأمن.

وعلى ذلك فالاعتقاد فى الطاغوت أو الشرك بالله لا يعد إيماناً.. وإنما يتحقق الإيمان من التصديق بالله والاعتقاد فى وحدانيته وما أمر به ونهى عنه وهو ما يطمئن إليه القلب حقيقه ويقره.. وهذا هو المعنى المستفاد من قوله وتعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٥)﴾ [سورة المائدة].

وقوله تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ [سورة النحل].

لذا فإنه من المؤكد الواضح جلياً أن معنى الإيمان فى الإسلام ينصرف لكل ما يتعين الإيمان به وحسبما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله الكريم يستلزم الإيمان التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لقوله تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ [سورة البقرة].

وقولـه تعـالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [سورة البقرة].

فإنـكار واحـدة من هـذه ينتفي معها الإيمـان. والأمثلة على ذلك كثـيرة فى كتاب الله كقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا (١٥١) ﴾ [سورة النساء].

وكقوله تعالى ﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ (٢٢) ﴾ [سورة النحل].

وقـد روى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً سـأل الرسـول ﷺ عن الإيمان فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجنة والنار وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال الرجل: فإذا فعلت فأنا مؤمن؟ قال ﷺ: «نعم») حديث صحيح أخرجه البخارى فى صحيحه ومسلم فى صحيحه.

وفى هذا الحديث أضاف ﷺ الإيمان بالقدر خيره وشره إلى ما سبق ولا يحول دون توفر الإيمان أن يكون الشخص غير عالم بجميع صفات الله، أو يكون جاهلاً بوجود بعض الكتب أو بعض المرسلين – إذ يكفيه التسليم بها والحكم بصحتها طالما أنها فى كتاب الله ومن عند الله وفى سنة رسوله ﷺ (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) **يؤيد ذلك قوله عز وجل:** ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٧) ﴾ [سورة آل عمران].

فالراسـخون فى العلم يؤمنون بما جاء بالكتاب ولو أنهم لا يعلمون المتشابه منه لأن المولى عز وجل قد حض ذاته بالعلم به.

ومن لـوازم الإيمان أن تجئ أعمـال المؤمن موافقة لعقيدته وغـير متعارضة معها،

والأفعال التى تتفق مع إيماننا قد أشـار إليها رسـولنا الكريم ﷺ فيما روى عن أبى هريرة مرفوعاً: (الإيمان بضع وسـبعون شـعبة – أو بضع وسـتون – أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) رواه كل من البخارى ومسلم فى صحيحه.

كما أن تقوى الله من أهم خواص الإيمان ومن مقتضى هذه التقوى الالتزام بالشعب التى عينها هذا الحديث – غير أن ترك بعض هذه الشعب لا ينفى الإيمان وإنما ينفيه ارتكاب الفواحـش عند ارتكابها – فقد روى عن رسـول الله ﷺ أنه قال: **(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسـرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)** رواه مسلم فى صحيحه.

وزاد همام فى روايته أن الرسـول ﷺ أضاف فى آخر هذا الحديث قوله: (ولا يغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن، فإياكم وإياكم) أخرجه مسلم فى صحيحه. والغول بضم الغين هو الخيانة.

وغير خاف أن الإسلام والإيمان يتفقان فى أن كليهما يقتضى التصديق بالقلب كما يستلزم أفعال الجوارح. غير أن ثمة فرقاً هاماً بينهما بدليل قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الحجرات].

وقد روى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شـديد سـواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى.. وقال: **يا محمد أخبرنى عن الإسلام**».

فقال رسـول الله ﷺ: (الإسـلام أن تشـهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً).

قال: صدقت. قال فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال فاخبرنى عن الإيمان.

قـال ﷺ: (أن تؤمـن بـالله وملائكتـه وكتبـه ورسـله واليـوم الآخر وتؤمـن بالقدر خيره وشره).

قال: صدقت. قال فأخبرنى عن الإحسان. قال ﷺ:

(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

ثم انطلق. ثم قال رسول الله ﷺ: (يا عمر أتدرى من السائل؟).

قلت الله ورسـوله أعلم. قال ﷺ : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) أخرجه مسـلم فى صحيحه.

فالإسـلام يخاطب الإنسـان باعتباره مخلوقاً من روح وجسـد فمن ناحية أوجب عليه الإيمان أى تصديق الروح بعموم ما أنزله الله على ملائكته ورسـله من كتب وبكل ما قدره وقضـى به. أما الجسـد الترابى الذى ينزع بطبيعته إلى الشـر فقد أولاه الله من أسـاليب التربية الدينية ما يكفل الحد من شـهواته وأطماعه ففرض عليه الأركان الخمسة للإسلام، التـى وردت فى الحديث المذكور، وكلها من أفعـال الجوارح. وهذه العبادات تفرض على المسـلم الامتناع عن المحظورات لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة العنكبوت].

وقوله ﷺ (المسـلم من سـلم الناس من لسانه ويده) أخرجه كل من مسلم والبخارى فى صحيحه.

وعلى ذلك يمكن القول أن الإيمان كعقيدة تستوجب تصديق القلب تصديقاً أشمل وأعمق مما يقتضيه الإسـلام، بدليل قوله تبارك وتعـالى للأعراب: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحجرات].

فمن حيث العمومية نجد أن الطاعة والعبادات التى أوجبها الإسلام تدخل ضمن شعب الإيمان، وأفضلها شـهادة ألا إله إلا الله. أما من حيث عمق العقيدة فقد روى عن الرسـول ﷺ أنه قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه – أو قال لجاره.. ما يحب لنفسه) أخرجه كل من البخارى ومسلم فى صحيحه.

وفى رواية أخرى عن أنس ابن مالك قوله ﷺ : (لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المـرء لا يحبـه إلا لله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله. وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) أخرجه كل من البخارى ومسلم فى صحيحه.

الإيمان من خصائص الروح :

تؤكد الأدلة من الكتاب والسـنة على أهمية القلب لأنه هو الذى يتم به التصديق اللازم لتوافـر الإيمان – ومن أمثلة ذلك قوله سـبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٢٢)﴾ [سورة المجادلة].

وكقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ (٣٢)﴾ [سورة الحج].

كما ورد عن الرسول ﷺ أنه قال:

(إن الحلال بين وإن الحرام بين.. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب) أخرجه مسلم فى صحيحه.

وهنا يجوز التساؤل: كيف يحصل التصديق أو الإنكار بالقلب وهو لا يعدو أن يكون مضغة تتولى ضخ الدم إلى سائر أعضاء الجسم؟

ومن الغريب أن كثيراً من العلماء والفقهاء والمفسرين لم يعنوا بالإجابة عن هذا السؤال، كما لو كان من البديهيات التى لا تستحق الرد عليها. غير أن قلة منهم مثل الأماميين الطبرى وفخر الدين الرازى قد تعرضوا لهذا الموضوع فى اقتضاب شديد فقالوا: إن القلب وعاء للعلم ومحل له وذلك وهم بصدد تفسير قوله سبحانه وتعالى:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٧)﴾ [سورة البقرة].

ومحل العلم بطبيعة الحال هو العقل. الذى به يتحقق الفهم والإدراك. فإذا قلنا: إن القلب محل العلم كان مؤدى ذلك أن القلب يؤدى ذات المهمة التى يباشرها العقل. ويتأكد هذا المعنى بمزيد من الوضوح فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ (١٧٩)﴾ [سورة الأعراف].

فالمعنى الواضح من هذه الآية هو أن الأصل فى القلوب أن تكون مدركة، وأن تكون الأعين مبصرة، والآذان قادرة على السمع.

ولكن إن صح أن للقلوب مقرا للوعى فى نظر الدين، فما هو رأى العلم فى هذا الموضوع؟

والواقع أنه ليس فى وسع الطب أو سائر العلوم الفيزيقية أن تثبت أن القلب يؤدى وظيفة العقل لأن العقل صفة فى الروح وليست فى البدن. كما أن علوم ما وراء المادة «الميتافيزيقا» متخلفة فى الدول العربية، بسبب معارضة كثير من رجال الدين لها وأحجامهم عنها.

كما أن علماء الروح فى الغرب لم يعرضوا لهذا الموضوع لعدم إلمامهم بعلوم القرآن. والثابت عندهم أن العقل يباشر مهامه على المستوى المادى عن طريق المخ. فما هى العلة من ذكر القلب فى الآيات السابق الإشارة إليها وعدم ذكر المخ؟

يقول العلامة النيسابورى فى الإجابة عن هذا التساؤل:

(إن القلب يراد به تارة اللحم الصنوبرى المودع فى التجويف الأيسر من الصدر، وهو محل الروح الحيوانى الذى هو منشأ الحس والحركة، وينبعث منه الدم إلى سائر الأعضاء بواسطة الأوردة والشرايين. ويراد به تارة اللطيفة الربانية التى يكون بها الإنسان إنساناً، وبها يستعد لامتثال الأوامر والنواهى والقيام بواجب التكاليف ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة ق]. وهى من عالم الأمر الذى لا يتوقف وجوده على مادة ومدة بعد إرادة موجودة).

ومفاد ما سبق أن القلب يراد به فى القرآن الكريم – إلى جانب معناه المادى – أنه تلك اللطيفة الربانية أى الروح – ولا يمكن بطبيعة الحال التسليم بأن القلب والروح شىء واحد، للاختلاف البين فى طبيعة كل منهما، وأظهر ذلك أن الروح تغادر الجسد عن الموت بينما يظل القلب فى موضعه ساكناً لا يتحرك. لذلك فلا مناص من التسليم بأن القلب هو مركز الروح ذاتها، وهذا يتفق مع الرأى القائل بأن القلب محل العقل، لأن العقل خاصية من خصائص الروح (وهو ما أشار إليه الإمام الغزالى، من رسالة إلى ملك شاه ص: ٣٦).

ومن جماع ما تقدم تنتهى إلى أن الروح مقرها الصدر عامة والقلب على وجه الخصوص ومن هذا المنطق كان مستودع النوايا والمعلومات كله فى الصدر. وقد تأكد هذا المعنى فى آيات عديدة منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

ونظراً لأن الإيمان كعقيدة وتصديق بالعقل يعد من خصائص الروح لا البدن، لذلك لزم الإشارة إلى الروح عند التنويه عنه. غير أن الثابت، أنه لغاية لا يعلمها إلا الله، لم يرد ذكر الروح باعتبارها اللطيفة الربانية إلا فى ثلاثة مواضع هى حالتى نفخ الروح فى آدم وعيسى بن مريم عليهم السلام. وللرد على سؤال اليهود عن ماهية الروح فى قوله جل وعلا:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الاسراء].

وفى غير هذه الحالات استعيض عن الروح بذكر مقرها وهو القلب أو الصدر.